الفصل الأوّل

تعريف الدّين والحوار

المبحث الأوّل
مفهوم الدّين

أ ـ دلالة اللغة :

ورد في لسان العرب لابن منظور في مادّة « دين » : الديّان: من أسماء الله عزّ وجلّ ، معناه الحكم والقاضي ، وسئل بعض السّلف عن علي بن أبي طالب عليه السّلام ، فقال: كان ديّان هذه الأمّة بعد نبيّها ، أي قاضيها وحاكمها ، والديّان: القهّار ، ومنه قول ذي الإصبع العدواني :

لاه ابن عمّك لا أفضلت في حسب فينا ولا أنت ديّاني فتخزوني

أي لست بقاهر لي فتسوس أمري. والديّان: الله عزّ وجلّ. والديّان: القهّار ، وقيل : الحاكم والقاضي ، وهو فعّال من دان النّاس أي قهرهم على الطّاعة. يقال: دنتهم فدانوا ، أي قهرتهم فأطاعوا ، ومنه شعر الأعشى الحرمازي يخاطب سيّدنا محمّد ﷺ : يا سيّد النّاس وديّان العرب. والدّين: الجزاء والمكافأة.. والدّين: يوم الجزاء.. والدّين الجزاء ، وفي الأثر: « لا تسبّوا السّلطان ، فإن كان لا بدّ فقولوا: اللّهم دنهم كما يدينونا » ، أي أجزهم بما يعاملونا به..والدّين الطّاعة ، وقد دنته ودنت له ، أي أطعته ، قال عمرو بن كلثوم:

وأيّاما لنا غرا كراما عصينا الملك فيها أن ندينا

والجمع الأديان ، يقال: دان بكذا ديانة ، وتديّن به فهو ديّن ومتديّن ، وديّنت الرّجل تديينا إذا وكّلته إلى دينه ، والدّين الإسلام ، وقد دنت به ، ودنت الرّجل خدمته وأحسنت إليه ، والدّين: الذلّ ، ودنته ، أدينه ، دينا ، سسته ، ودنته:

ملكته ، ودنت الرّجل: حملته على ما يكره ، والدّين ما يتديّن به الرّجل ، والدّين: السّلطان ، والدّين : الورع ، والدّين: القهر ، والدّين: المعصية ، والدّين: الطّاعة [١] .

ب ـ دلالة الاصطلاح :

يرتبط التعريف الاصطلاحي للدين بالتعريف اللّغوي ، وهي طبيعة المصطلحات في الفكر الإسلامي إذ توجد بين الدلالتين صلة نسب وثيقة ، وهو ما نلحظه مثلا بين ما سبق ذِكره من الدلالة اللّغوية للدّين عند ابن منظور في لسان العرب وبين ما أورده صاحب القاموس الإسلامي [٢] بعد وقوفه عند الدلالة اللّغوية : « الدّين في اللّغة من الألفاظ التي تعدّدت مدلولاتها ومعانيها العامّة والمتخصّصة ، يقال : دانه يدينه أي أطاعه وذلّ له ، فالدّين يكون بمعنى الطّاعة والعادة والقضاء والحساب والجزاء ، ويكون بمعنى العقيدة والشّرع والملّة ، ويعرّف الدّين بهذا المعنى بأنّه : وضع إلهي يدعو ذوي العقول باختيارهم إلى ما فيه صلاحهم في الحال وفلاحهم في المستقبل ؛ لهذا يقسّم الدّين إلى عقيدة وإلى عمل » .

ولقد ورد لفظ الدّين في القرآن الكريم مفردا أو معطوفا ، في واحد وتسعين موضعا بمعناه العام والخاص ، وهي نفس المعاني التي عدّدها ابن منظور استقاها من دلالات الآيات القرآنية ، واستعارها غيره منه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [٣] ، وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ [٤] ،

---

(١) لسان العرب ، دار صادر، بيروت (بدون تاريخ) ٢ / ١٤٦٧.

(٢) القاموس الإسلامي: ص ١٢٧.

(٣) سورة الكافرون : ٦.

(٤) سورة النساء : ١٧١.

والدّين بمعناه الخاص يقصد به الإسلام ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [١]، وقوله تعالى : ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [٢]، والدّين يكون بمعنى الجزاء والحساب ، ومن ثمّ كان المقصود بيوم الدّين يوم الحساب والجزاء ، قال تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [٤] .

أمّا إذا تجاوزنا الدّائرة الإسلامية إلى ما دونها من المرجعيات الفكرية فإنّنا نلحظ اختلافا كبيرا في ما بين تلك التعريفات ، وذلك لتباين منطلقاتها المعرفية. جاء في الموسوعة العربية الميسّرة [٥] : دين : اصطلاح من العسير تحديده تحديدا دقيقا لتباين تأويله لدى كلّ من البدائيّين وأصحاب الديانات السماوية ، ولاختلاف طبيعته من شخص لآخر ، ولاتّصاله بأعمق العواطف والمعتقدات التي تدفع الإنسان نحو الكمال ، ويشتمل الدّين على الدوافع التي تحكم سلوك الإنسان ، بدائيّا كان أو متحضّرا...ويصبح الدّين عاملا هامّا في حياة الإنسان عندما يشعر بقوّة عليا يخضع لها ، وتؤثّر في وجدانه وأفكاره وآرائه وأحكامه وسلوكه وأعماله ، وترتبط قيم الإنسان كلّها بالدّين ، وتعتمد أفكاره عن الصدق والحقّ على الدّين ، وتصبح المشكلات الدينية والآراء المتّصلة بها على علاقة وثيقة بحياة الفرد وشعوره وضميره [٦] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩.

(٢) سورة المائدة : ١٣.

(٣) سورة الفاتحة : ٤.

(٤) سورة ص : ٧٨.

(٥) ص ٨٣.

(٦) بطرس البستاني: دائرة المعارف ، دار المعرفة ، بيروت (بدون تاريخ) ٨ / ٢٣٦.

وعرّفته دائرة معارف القرن العشرين [١]، بأنّه: الطّاعة والانقياد، واسم لجميع ما يُعبد به الله، والملّة، ومثله الديانة، جمع الدّين: أديان، وجمع الديانة ديانات. ومعنى الدّين في دائرة المعارف البريطانية [٢]: هو علاقة النّاس بالأشياء التي يعتبرونها مقدّسة بالنّسبة لهم، أو علاقة النّاس بالأشياء الرّوحية، الدّين بصورة عامّة يتكوّن من علاقة الإنسان بالإله أو الآلهة أو عالم الأرواح. وتعتبر العبادة أهمّ عنصر من عناصر الدّين، كما أنّ الالتزام الأخلاقي وحقّ الاعتقاد والمشاركة في المؤسّسات الدينية هي من مكوّنات الحياة الدّينية التي يمارسها المعتقدون والعابدون. وجاء في القاموس الفرنسي « لاروس الكبير Grand Larousse » [٣]: الدّين مجموعة عقائد وأعمال خاصّة بملّة دينية. وللحقيقة فإنّ هذا المصطلح يدلّ معناه على الديانة بأوسع معانيها، كما بلغ من الغموض حدّا يوجب التّفرقة بينه وبين الملّة والمذهب والشريعة والنِّحلة.

أ ـ الشّريعة: ويقال أيضا: « شرع » هي لغة: الطريق إلى مورد الماء، والطريق الواضح الذي يجب سلوكه، والطريق الذي يجب على المؤمنين أن يتّبعوه، وعن قتادة قوله: الشريعة: الفرائض والحدود والأمر والنّهي [٤]، والشّريعة والشّرعة. ما سنّ الله من الدّين وأمر به كالصّوم والصّلاة والحج والزّكاة وسائر أعمال البشر، ومنه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ [٥]، وقوله تعالى:

---

(١) محمّد فريد وجدي، دار المعرفة للطباعة والنّشر، بيروت، طبعة ٣/ ١٩٧١، ٤/ ١٠٦.

(٢) The new Encyclopaedia Britanica : International copyright union – 15th Edition – V9-P1016.

(٣) Grand Larousse : T9-P118.

(٤) الطبري: جامع البيان: ١١/ ٨٨.

(٥) سورة الجاثية: ١٨.

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [١] ، قيل في تفسيره: الشّرعة الدّين ، والمنهاج الطريق ، وقيل : الشِّرعة والمنهاج جميعا الطّريق ، والطريقة هاهنا الدّين ، ولكن اللّفظ إذا اختلف أُتِي به بألفاظ يؤكّد بها القصّة ، والأمر كما قال عنترة :

أقوى وأقفر بعد أمّ الهيثم

فمعنى أقوى وأقفر واحد على الخلوة ، إلاّ أنّ اللّفظين أوكد في الخلوة [٢].

ب ـ **الملّة** : قال الزمخشري: الملّة الطريقة المسلوكة ، ومنها: ملّة إبراهيم خير الملل ، وامتلّ فلان ملّة الإسلام [٣] ؛ لذلك فإنّ الدّين ما يكون عليه كلّ واحد من أهل الملّة الواحدة ، وأنّ الملّة اسم لجملة الشرائع. وقال الرّاغب الأصفهاني [٤] : الملّة كالدّين وهو اسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصّلوا به إلى جوار الله ، والفرق بينها وبين الدّين أنّ الملّة لا تضاف إلاّ إلى النّبي ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ الذي تسند إليه نحو: ﴿ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [٥] ، ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ ﴾ [٦] ، ولا تكاد توجد مضافة إلى الله ولا إلى آحاد أمّة النّبي ﷺ ، ولا تستعمل إلاّ في جملة الشرائع دون آحادها ، لا يقال : ملّة الله ولا يقال : ملّتي وملّة زيد ، كما يقال : دين الله ودين زيد...وتقال الملّة اعتبارا بالشّيء الذي شرعه الله ، والدّين يقال اعتبارا بمن يقيمه إذا كان معناه الطّاعة .

---

(١) سورة المائدة : ٤٨.

(٢) ابن منظور: لسان العرب ٨ / ١٧٦ .

(٣) أساس البلاغة ، دار صادر، بيروت ، طبعة ١٩٧٩ ، ص ٦٠٤.

(٤) المفردات في غريب القرآن : تحقيق وضبط: محمّد سيّد كيلاني ، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت (بدون تاريخ) ، ص ٤٧١.

(٥) سورة النساء : ١٢٥.

(٦) سورة يوسف : ٣٨.

جـ ـ **النِّحلة** : وردت في القاموس العصري بمعنى مذهب ديني ، قال الرّاغب الأصفهاني[١] : والانتحال ادّعاء الشّيء وتناوله ، ومنه يقال : فلان ينتحل الشّعر. في حين يرى علماء الغرب أنّها: مجموعة العقائد والعبادات والشعائر التي تخصّ شخصا بعينه ، وقد سحبوا هذا التّعريف على الإسلام ، الذي يحصر في إطار الشّخص الواحد أو الجماعة الواحدة ، وعلى هذا الأساس تصبح النّحلة نظام خاصّ لا يمكن سحبه على الجميع ، فتكون النّحلة عبارة عن إلحاق فرد أو جماعة بعقيدة معيّنة سواء كانت هذه العقيدة دينيّة أو غير دينيّة ، وسواء كانت صحيحة أو غير صحيحة ، فهي من قبيل الهوى المتّبع الذي لم يرد في القرآن إلاّ مقرونا بالذمّ ، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[٢] ، ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[٣].

د ـ **المذهب** : المعتقد الذي يُذهب إليه ، وذهب فلان لذهبه أي لمذهبه الذي يذهب فيه ، والمذهب عامّة هو الطريق الذي يختاره شخص ، سواء من باب الاجتهاد كالمذاهب الفقهية والقانونية ، أو تأسيس للأفكار والآراء ، فتحمل بذلك صفة المذاهب والتيّارات.

والواقع أنّ أصول الاشتقاق والدلالة المعنوية وإن عبّرت عن شكل من الاختلاف إلاّ أنّها تحمل تقاربا شديدا في المعنى العامّ ، إذ يمكن إرجاع كلّ ذلك إلى ثلاث كلمات لا واحدة فقط ، أو قل تتضمّن ثلاثة أفعال بالتناوب: فعل متعدّ بنفسه ، وفعل متعدّ باللاّم ، وفعل متعدّ بالباء.

---

(١) نفس المصدر السّابق ص ٤٨٥ .

(٢) سورة المائدة : ٤٨ .

(٣) سورة المؤمنون : ٧١ .

١ ـ فإذا قلنا : « دانه دينا » عنينا بذلك أنّه ملكه ، وحكمه وساسه ، ودبّره ، وقهره ، وحاسبه ، وقضى في شأنه ، وجزاه وكافأه ، فالدّين في هذا المعنى يقصد به الملك والتصرّف بما هو من شأن الملوك من السياسة والتدبير ، والحكم والقهر ، والمحاسبة والمجازاة ، ومن ذلك ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [١] ، أي يوم المحاسبة والجزاء ، وفي الحديث: « **الكيّس من دان نفسه** » [٢] ، أي حكمها وضبطها ، وعلّق على ذلك التّرمذي بقوله: « **حاسب نفسه في الدّنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة** » [٣]، و« الديّان » الحكم القاضي.

٢ ـ وإذا قلنا : « دان له » أردنا أنّه أطاعه ، وخضع له ، فالدّين هنا هو الخضوع والطّاعة ، والعبادة والورع . وكلمة ﴿ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ يصحّ أنّ منها كلا المعنيين: الحكم لله أو الخضوع لله. وواضح أنّ هذا المعنى الثّاني ملازم للأوّل ومطاوع له ، « دانه فدان له » أي قهره على الطّاعة فخضع وأطاع.

٣ ـ وإذا قلنا : « دان بالشّيء » كان معناه أنّه اتّخذه دينا ومذهبا ، أي اعتقده أو اعتاده أو تخلّق به ، فالدّين على هذا هو المذهب والطريقة التي يسير عليها المرء نظريا أو عمليا. فالمذهب العملي لكلّ امرئ هو عادته وسيرته ، كما يقال : « هذا ديني وديدني » ، والمذهب النّظري عنده هو عقيدته ورأيه الذي يعتنقه ، ومن ذلك قولهم: « ديّنت الرّجل » أي وكّلته إلى دينه ولم أعترض عليه فيما يراه سائغا

---

(١) سورة الفاتحة : ٤.

(٢) الترمذي: الجامع الصحيح، وهو سنن الترمذي: تحقيق وشرح: أحمد محمّد شاكر ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (بدون تاريخ) ٤ / ٦٣٨ ، كتاب صفة القيامة ، باب (٢٥) حديث رقم (٢٤٥٩) .

(٣) الترمذي : الجامع الصحيح .

في اعتقاده. وللملاحظة فإنّ الاستعمال الثّالث تابع للاستعمالين قبله، نسبة للمعاني الدّلة عليها.

جـ ـ الصلة بين الدلالتين :

إنّ هذه الدلالات اللّفظية والمعاني اللّغوية تعني في لغة العرب : وجود علاقة بين طرفين يعظّم أحدهما الآخر ويخضع له، فبنسبتها للطّرف الأوّل يعني الخضوع والانقياد، وإذا وصف بها الطّرف الثّاني كانت أمرا وسلطانا، وحكما وإلزاما، وإذا نظر إليها على أنّها رابطة بين الطّرفين كانت هي الدّستور المنظّم لتلك العلاقة. وكخلاصة لذلك يمكن أن نقرّر أنّ المعاني كلّها تؤدّي معنى لزوم الانقياد، الذي يعتبر المحور الرئيس لتحقيق معنى التديّن.

وبذلك يتّضح أنّ هذه المادة بكلّ معانيها أصيلة في اللّغة العربية، وأنّ ما ادّعاه بعض المستشرقين من أنّها دخيلة، معرّبة عن العبرية أو الفارسيّة هو مجرّد افتراء[1]، والقصد من ذلك تجريد اللّغة العربية من قدرتها على الدّلالة المعنوية والطّعن في أصالتها، واتّهامها بأنّها مجرّد خليط وهجين لغوي، وهو ما يمكن ملاحظته في التّعريف التّالي:

الدّين: ذكر فقهاء اللّغة من العرب في مادّة « دين » معاني مضطربة أساسها كلمات ثلاث قائمة برأسها :

١ ـ كلمة آرامية عبرية مستعارة معناها « الحساب » .

٢ ـ كلمة عربية خالصة معناها «عادة» أو «استعمال» تمت هي والأولى إلى أصل واحد مثلها في ذلك مثل الكلمة العبرية « نشبات » بالنّسبة إلى الكلمة « شافاط » .

---

(١) محمّد عبد الله دراز : مصدر سابق، ص ٣٠ وما بعدها (بتصرّف) .

٣ ــ كلمة فارسية مستقلّة تمام الاستقلال معناها « ديانة » ، وقد عارض « فولرز » الرّأي القائل بوجود كلمة عربيّة خالصة هي « دين » وبيّن أنّ الكلمة الفارسيّة « دين » بمعنى ديانة كانت مستعملة بالفعل في اللّغة العربية أيّام الجاهلية ، وذهب إلى أنّ المعنى « عادة » أو « استعمال» قد اشتقّ من هذه الكلمة[١] . وبإيرادنا لهذه التّعريفات تجدر الإشارة إلى:

أوّلا : عدم وجود ترجمة أمينة للنّصوص من لغة إلى أخرى ، إلى جانب التصرّف المخلّ بالمعاني المثبتة ؛ زيادة ونقصانا وإضافة ما هو من خارج النصّ مرّة واحدة ، ممّا يشكّك آليا في قيمتها العلميّة.

ثانيا : ما ورد في مادّة « دين » بدائرة المعارف الإسلامية في النّسخ الثلاث المتوفّرة؛ العربية والفرنسيّة والإنجليزية ، لا يمكن اعتباره عملا واحدا ـ بكلّ المقاييس العلميّة للنّقل ـ وفي أقصى الحالات يمكن اعتباره « ترجمة بتصرّف » مع التبديل ، وذلك لاعتبارين:

أوّلهما : اختلاف المعلومة الواحدة بين هذه النُّسَخ .

وثانيهما : أنّنا إذا اعتبرنا النّسخة الإنجليزية نسخة قياسيّة ، وأعدنا ترجمة نصوصها المعنية إلى اللّغة العربية فسوف ننتهي إلى معاني لا تتّفق ومدلول المصطلح الشرعي ، بل نتوصّل إلى معاني أخرى غير واردة في مختلف التراجم المتداولة ، سواء أكانت التّرجمة حرفية أو معنوية.

ثالثا : ما ورد بدائرة المعارف الإسلاميّة من تعريف للدّين لا يُعتدّ به ، لاعتباره غير نابع من أصول ثقافتنا[٢] ، وصميم معتقدنا ، وإنّما هو اجتهاد إنساني نسبي ،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٩ / ٨٣٨ .

(٢) لاعتبارها ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ خلاصة الفكر الغربي خلال القرون الأربعة الأخيرة، وأنّ الذين اشتركوا في إعدادها تصل قائمة أسمائهم إلى أربعمائة اسم، وهي تمثّل في الحقيقة عصارة جهد الاستشراق في النّيل من الإسلام والحطّ من شأنه من خلال حوالي ألف كتاب اعتمدت عليها كمصادر لها، كانت =

غلب عليه الطّابع الوصفي المتأثّر بالقراءة الغربية للدّين.

د ـ الدّين عند علماء الغرب :

تختلف التّعريفات عند علماء الغرب تبعا لاختلاف مشاربهم الدّينية والثقافية والإيديولوجية الفلسفية ، بخلاف تعريف الإسلاميّين الذين لم يتعدّ اختلافهم الجانب اللّفظي. أمّا سبب التناقض المعرفي الذي أصاب الفكر الغربي برغم وحدة مرجعيته الفكرية الدينية التاريخية فهو راجع إلى:

ـ كثافة المواريث المتناقضة فيما يتعلّق بالدّين الذي توارثوه من قديم.

ـ عدم وجود نصوص معياريّة في الكتب الدينيّة توضّح الدّين؛ مفهوما ومحتوى.

ـ عدم كمال دائرة الفروض العقلية التي وضعوها لمناقشة التديّن ونشأة الدّين.

ـ فساد المقاييس التي وضعوها لتفسير تطوّر الدّين على منوال مقاييس المذهب التطوّري الصناعي والأدبي...

ـ عدم تطبيق الحيدة العلمية في البحث العلمي.

= قد ألّفت خلال أكثر من أربعمائة عام. والمثير في الأمر أنّ الانطلاقة التي بدأها المستشرقون في توجّههم هذا كان له سابقة في أوروبا، وهي ما قام به الطبيب « باراسلوس » عام ١٥٢٧م في مدينة بازل بسويسرا، حيث أحرق كتب الطبيب المسلم ابن سينا في الميدان العام بمدينة « بازل » ، مسجّلا بذلك نهاية تبعيّة أوروبا للحضارة الإسلامية، وبداية الهيمنة الثقافية والحضارية لأوروبا على الشّرق الإسلامي. أمّا مفردات الدسّ والتّشويه التي حوتها هذه الموسوعة فلا تنحصر بزاوية واحدة، بل إنّها وضمن مناقشاتها للقضايا الأساسيّة تشمل الجوانب المتّصلة بالعقيدة، كالرّسول ﷺ ، والقرآن الكريم والسنّة الشريفة، وكذلك ما هو متّصل بأركان وفروع التّشريع الإسلامي، كالصّلاة والحجّ وغيرها، هذا إلى جانب تناولها لبعض مفاصل التّاريخ الإسلامي وسيرة كبار رجال الإسلام وقادته...وللذّكر فقط، فقد أبرزت الموسوعة اهتماما كبيرا بأصنام العرب قبل الإسلام، وما أسمته بطقوس الحجّ، والتي حاولت أن تخلط فيها بين طقوس الحجّ قبل الإسلام وما شرعه الإسلام من فرائض عبادة الحجّ.

ـ حرمان البحث العلمي من الهدف الصحيح ، والصّلف بالبحث العلمي « العلم لذاته » لا للوصول إلى الحقّ.

ـ اعتمادهم في تقرير مسائل الدّين على المجامع المسكونيّة والعواطف الذاتية.

ومن آثار هذا الاضطراب تباين آراء فلاسفة الغرب عند محاولتهم تقسيمهم مجموع الأديان البدائيّة ، بناء على المقدّمات النظرية التي اعتمدوها في دراساتهم الدينية. ومن المؤسف له أنّ العديد من أبناء المسلمين المتأثّرين بتلك الدراسات الغربية التي ظهرت في بيئة غير بيئتنا اعتمدوها في جملة بحوثهم وتقريراتهم كحقيقة علمية مطلقة ، وهو ما عارضه بعض من علماء الغرب ممّن شهدوا له بالتفوّق العلمي والدقّة في النتائج التي توصّل إليها.

أولا : تقسيم الدين :

خضع البحث في أصول العقيدة الدينية وتقسيمها عند علماء الغرب للعديد من الاعتبارات التاريخية والفكرية كما أسلفنا ، ممّا كان له الأثر الكبير في تحديد مختلف الحِقب التي مرّت على التديّن البشري. وفي حين يعتبر الفكر العقدي الإسلامي أن الدين واحد من عند الله ، وما عداه انحراف عن الفطرة من كسب الإنسان ، يرى الفكر الفلسفي الوضعي الغربي أنّ الدين نُمِّطَ تجريبيا تطوّريا حتى انتهى إلى ما هو عليه ، تبعا لطبيعة التطوّر البشري ، الذي تدرّج من البدائية الحيوانية إلى أن بلغ درجات التحضّر الإنسي ، وفقا للنظرية التطورية التي تتناقض في جوهرها ومقصدها مع نظرية الخلق والتكريم الإلهي.

تقسيم هيقل Heguel:

ـ دين أوجده الاجتهاد البشري فقط.

- دين قائم على الظنون.
- دين قائم على الإلهام والشعور.
- دين قائم على التحرّي والتّفكير.
- دين قائم على الترانيم والرّقص.
- دين قائم على سفك الدماء والاضطراب الرّوحي.
- دين قائم على الأصنام.
- دين قائم على الفراسة والتّحليق في الفلسفة الغامضة.

تقسيم هارثمن Harthman :

- دين التّوحيد الكاذب (دين هنود أمريكا).
- دين الفناء المطلق (كالبوذية).
- دين الدّهرية وأشباه الدّهرية (مثل أديان روما القديمة).
- دين الزّهد (كالبرهمية).
- دين الأوهام (كالديانات الفرعونية).

تقسيم تيل Tyels :

- دين عبادة الحيوانات المتعدّدة (ما كان شائعا في أوروبا الشمالية).
- دين المحبّة والشياطين (ما كان شائعا في اليونان والصقالبة).
- دين السّحر والشّعوذة (كالديانات الرّومانية القديمة).
- دين عبادة الأشخاص (وهي عبادة الشعوب الجرمانية).

تقسيم سيبرك Syebrag:

ـ دين قائل بوجود صانع لهذا الكون.

ـ دين عبادة الانقياد لكلّ شيء حسن (مثل فلاسفة اليونان قديما).

ـ دين مطلق لا يعترف بخالق ، وهي عقيدة سرت إلى أوروبا من آسيا.

ـ دين العقيدة الوسطى ، خليط بين وجود وعدم وجود مبدع للكون[١].

ثانيا : تعريف الدين :

وقد أثّر هذا الاضطراب على المحاولات المستمرّة لتحديد معنى مصطلح « الدّين » ، مع العلم أنّ هذه المحاولات الكثيرة والمختلفة لو جُمعت محاورها في تعريف واحد لجاز أن تعتبر تعريفا محترما للدّين ، ومنها تعريف:

ـ كانت Kant في كتابه « الدّين في حدود العقل La religion dans les limites de la Raison » : الدّين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهيّة.

ـ الأب شاتل Abbé Chatel في كتابه « قانون الإنسانية Code de lHumanité » : الدّين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق ، وواجبات الإنسان نحو الله ، وواجباته نحو الجماعة ، وواجباته نحو نفسه.

ـ تايلور Taylor في كتابه « المدنيّات البدائيّة Civilisation Primitives » : الدّين هو الإيمان بكائنات روحيّة.

ـ ماكس ميلر Max Muller في كتابه « نشأة الدّين ونموّه Origine et Dévelopement de la Religion » : الدّين هو محاولة تصوّر ما لا يمكن تصوّره ،

(١) عبد الرّؤوف شلبي: وحدة الدّين ، ص ٦٤.

والتّعبير عمّا لا يمكن التّعبير عنه ، هو التطلّع إلى اللاّنهائي ، هو حبّ الله.

ـ سالمون رياناك Salomon Reinach في كتابه « التّاريخ العام للديانات Histoire général des Religions » : الدّين هو مجموعة التورّعات التي تقف حاجزا أمام الحريّة المطلقة لتصرّفاتنا » .

ـ إيميل دوركايم Emile Durkheim في كتابه « الصّور الأوّلية للحياة الدينية Formes Elémentaires de la vie Religieuse » : الدّين مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلّقة بالأشياء المقدّسة (أي المعزولة المحرّمة) ، اعتقادات وأعمال تضمّ أتباعها في وحدة معنويّة تسمّى الملّة[1].

والمتتبّع لهذه التّعريفات بوجه تحليلي نقدي ، يقف على جملة استنتاجات تفسّر في جانب كبير منها أسباب القصور في تحديد مفاهيم معتبرة للدّين ، هذا فضلا عن الاضطراب الذي أدّى إلى خلل في تصوّر أصل الدّين ومضمونه. فبمراجعة هذه الآراء نجدها تعكس في الأساس ما تشكّلت عليه ذهنيّة الباحث من أحاديّة الاختصاص ، كعالم اجتماع أو باحث في الآثار أو رجل لاهوت ، وبذلك يطغى على هذه التّعريفات النزوع نحو إعطاء الدّين مضمونا واحدا أو مجالا واحدا للتحرّك؛ هو ما تعبّر عليه حركة الإنسان أو حرصه على التوجّه إلى قوّة واحدة مؤثّرة ، أو ما يوجد في إطار العائلة أو الأسرة أو القبيلة كقاسم مشترك فيعتمد كدليل على صحّة مقولة الطوطم مثلا ، أو التديّن السحري الذي يعتمد على تعامل الخوارق والتحكّم في الأرواح ، وبناء على ذلك فإنّ أغلب المصطلحات والمفردات لم تخرج عن معاني: الأمر ، الواجب ، الرّوح ، الفناء ، التورّع ، الوحدة

(١) محمّد عبد الله دراز: مصدر سابق ص ٣٣ (بتصرّف).

المعنويّة...والذي يؤدي بصفة آلية إلى اعتبار الدّين إمّا خرافة أو أسطورة أو سحر أو عبث أو انغماس في تدمير النّفس وعزلها عن محيطها الجسدي الذي لا يمكنها أن تكتسب إلاّ به ، وكلّ ذلك بُعد عن التّعريف السليم للدّين ، الذي لا يخرج عن كونه اعتقاد بوجود ذات غيبيّة علويّة ، لها شعور واختيار ، ولها تصرّف وتدبير للشؤون التي تعني الإنسان ، اعتقادا من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذّات السّامية في رغبة ورهبة ، وفي خضوع وتمجيد ، أي الإيمان بذات إلهيّة جديرة بالطّاعة والعبادة ، وأنّ لتلك الذّات نواميس نظرية تحدّد صفاتها وطريق عبادتها[1].

ثالثا : أصول التدين عند الغرب:

تعدّدت النظريّات التحليليّة لنشأة الدّين ، بتعدّد الموجّهات الثقافيّة والحضاريّة ، وكذلك بتعدّد التأثيرات الدينيّة أو الرواسب الدينيّة التي يكتنزها الباحث في لاوعيه ، وكلّ ذلك تبعا للقناعات الإيديولوجيّة والفلسفيّة. نلحظ ذلك في مختلف التّعريفات المختصّة ، والآثار الأدبيّة النثريّة والشعريّة ، وكذلك على مستوى المسرح والسينما ، ومن أهمّ الكتب التي روّجت لهذه الفكرة قصّة مدرسية تحمل عنوان « كوكب القردة » وعنوانها الأصلي « LA PLANETE DU SINGES » . وتتقاسم هذه التّعريفات نظريّات كبرى تستند بحسب بحوثها المنشورة إلى جملة مقدّمات بحثية: دراسات ميدانيّة تاريخية وحفريّات ، أو بعض الملاحظات العلمية. ومن أهمّ هذه النظريّات:

ـ **النظرية الطبيعيّة:** ترتبط هذه النظرية بعامل الانتباه الذي تفرضه الطبيعة على

(١) انظر: نفس المصدر السّابق ص ٥٢.

الإنسان ، إمّا ببديع صنعها وجمال تركيبها ، فيندفع الإنسان وراء ذلك باحثا عن هذه القوة الخارقة الجمال المبدعة الصنع ، بقصد التقرّب منها والعيش تحت سلطان جمالها وتأمّل دقّة التوازن الذي تحدثه ، أو بظواهرها الشّاذة والعنيفة المفزعة ، من خلال البراكين والزلازل ومختلف الكوارث الطبيعية ، فتحدث في نفس الإنسان هزّة قوية توجّهه نحو البحث عن السّبب الحقيقي لهذا الغضب المدمّر بقصد خطب ودّه وإرضائه لاتّقاء شرّه وتجنّب أذيّته.

ـ **النظرية الرّوحية** : تقوم في تصوّر البدائي على ازدواجية الحياة بين يقظة ونوم ، معتبرا أنّ ما يراه في منامه هو حياة مستقلّة بذاتها ، تعبّر عن قدرة الرّوح اختراق الحواجز. وبناء عليه اعتقد في قدرتها على النّفع والضرّ ، خاصّة بعد مفارقتها الجسد. ولتجنّب شرّها واستنزال رحماتها نشأت عبادة الأرواح وتقديسها ، ويعتبر تيلور E.Taylor من المدافعين عن هذه النظرية في كتابه عن الحضارات البدائيّة.

ـ **نظرية ما قبل الرّوح** : وتعرف كذلك بنظرية المانا « MANA » ، هي مرحلة سابقة لمرحلة الاعتقاد في الأرواح ، وجوهرها أنّ الإنسان البدائي اعتقد أنّ هناك قوّة واحدة منتشرة في جميع أرجاء العالم ، وتتصوّر في سائر الموجودات من غير تشخيص.

ـ **النظرية الطوطمية TOTEM** : تنتسب هذه النظرية إلى الرّمز الذي تتّخذه العشيرة البدائيّة كشعار لها ، لاعتقادها أنّه الأصل الذي تنحدر منه ، وقد يُستمدّ من المملكة الحيوانيّة أو النباتيّة أو القوى الطبيعيّة ، وعليه تبنى صلة القرابة بين أفراد تلك الجماعة الذين يُشترط فيهم الانتماء إلى نفس الرّمز العشائري ، ونتيجة

لهذه المراكمة المرتبطة بالولاء والالتزام نشأت عقيدة التقديس والخضوع التام لهذا الرّمز الذي تحوّل تدريجيا إلى صورة من صور التديّن البدائي.

ـ **نظريّة التّوحيد البدائي**: تعتبر صورة أولية لتبني فكرة الإلهام الربّاني للإنسان لمعرفة الإله. وتلتقي مع نظرية فطرية الإيمان في كون أصل الفكرة الدينية موجود بالطبع في وجدان الإنسان تولد معه ، وبرغم مخالفتها للنظريّات المتقدّمة ، إلاّ أنّها تتّفق معها في القول ببدائيّة التديّن الإنساني.

ـ **النظريّة التّوفيقية**: هي محاولة للرّبط بين عناصر التديّن السّابقة:

أ ـ أنّ الأشياء التي تُعبد حيّة.

ب ـ أنّ المانا أساس فكرة الألوهيّة.

جـ ـ أنّ الآلهة التي تعبد خالقة.

وبذلك تطوّرت فكرة الألوهية حتّى انتهت إلى فكرة وحدة الوجود الفلسفيّة[1].

هـ ـ مراجعة تعريف الدين:

برغم اختلاف نظريات نشأة الدّين كما سبق بيانه فإنها تساعد جدّا في تحديد معنى المصطلح وذلك للاعتبارات السّابقة ، فلو راجعنا مثلا المصادر الغربيّة في تعريف « الدّين » ، لوجدنا فيها اختلافا كبيرا. فمنها ما هو متأثّر بالنّزعات الفلسفيّة الماديّة ، ومنها ما هو متأثّر بالديانات الهنديّة القديمة ، ومنها ما تجد فيه أثرا للخرافة والشعوذة. ومن ذلك ما ذهبت إليه دوائر المعارف الغربية ، حيث

(١) انظر: محمّد عبد الله دراز: الدّين ص ١١٤ وما بعدها. كما سنفرد مبحثا خاصا لمسألة وحدة الوجود.

تعتبر الدّين هو الاعتقاد في إله واحد أو آلهة كثيرة ، ممّا يولّد علاقات بين هؤلاء النّاس الذين يقبلون هذا الاعتقاد ، وبذلك تكون الكاثوليكية أو البروتستانتية ديانات مسيحية ، كما أنّ الإسلام هو دين المسلمين[١] ، ومنها ما يعتبر الدين ثقافة متعلّقة بالرّوحانية ، وأنّ الدّين الطبيعي هو ما يؤسّس فقط على إيحاءات القلب والعقل[٢].

وعامّة فإنّ مصطلح « دين » أو « ديانة » يطلق ويراد به أحد أمرين: إمّا الأديان السماويّة فقط ، أو الأديان السماوية وغيرها من الديانات غير السماوية. إذ يقوم التصوّر الأوّل على أساس سماوي ، أي لا اعتبار للدّين إلاّ ما أنزل من عند الله ، فيكون الدّين هو اليهوديّة والنّصرانيّة والإسلام ، على اختلاف في التّعريفات والمضامين العقدية ، أمّا باقي المذاهب فهي معتقدات تاريخيّة تشكّلت بتراخي الزمن ، لتصبح أديانا وضعيّة ، وأنّه لا اعتبار للمزاعم التي تجعل من « بوذا » إلها ، أو ترتقي بالوثنيّة الهندوسيّة والجينية والخرافة في الديانات الفارسيّة القديمة إلى مصافي الحكمة ، برغم ملاحظة مقولات كثيرة ووصايا مشهورة توارثوها كعقائد لهذه الديانات الوضعيّة.

أمّا التصوّر الثّاني للدّين ، فهو تصوّر إنساني أخلاقي ، يحدّد الدّين في جملة القوانين الأخلاقيّة والإلزامات الأدبيّة والجبريّة التي تكون بمثابة عقائد عامّة يتديّن بها ، وعلى هذا الأساس تعتبر الكونفشوسيّة دينا وكذلك الهندوسيّة والبوذية والجينية ، ومختلف الديانات المصريّة البابليّة القديمة التي تعلّقت

---

(١) Hachette : P816.

(٢) Petit Larousse : Librairie Larousse – 8e Tirage 1961 – P816.

بالوثن ، فتتساوى بذلك مع التي لها أصولا سماوية. ولربّما وجدت بعض العقائد في اليهوديّة والنّصرانية كانت سائدة عند القدامى ، فيصبح ذلك دليلا على وجود علاقات عقدية بين مختلف هذه الوثنيّات والتّحريفات التي طرأت على اليهوديّة والنّصرانية ، ونلحظ ذلك أساس فيما أدخله بولس على النّصرانية ، ثمّ ما أضافته المجامع المسكونيّة النّصرانية ، وكذلك بعض تأثيرات الفلسفة الهنديّة القديمة على بعض تيّارات الفكر الصّوفي الفلسفي في التّاريخ الإسلامي.

وأمام ضعف الحصن الديني للإنسان في الغرب الذي غلب عليه الطّابع المادي ، وافتقاره لمقوّمات الدفاع الرّوحي أمام زحف التيّار المادي ، وجدت الكثير من الفلسفات الروحية وخاصّة ذات الطابع الصوفي طريقها إلى هذه المجتمعات ، وهو ما اصطُلح عليه بالروحانية الجديدة[1]. لذلك نشطت حركات التصوّف بين الباحثين والمنشغلين بالدراسات الدينية عامّة والإسلامية خاصّة ، وهو البديل الحتمي لطغيان النزعة المادية وهيمنتها على الحياة واستحكام سلطانها في الفكر وتوجيهه وفق مبادئها.

وقد قدّمنا سابقا أمثلة من قواميس ودوائر المعارف الغربية والتي تكشف عن خلل كبير في تصوّر حقيقة الدّين وماهيته. فيصبح التيّار والمذهب دينا قائما بذاته ، كأن تتحوّل الكنيسة إلى جامعة لمختلف الأديان النصرانية لا مجرّد رابطة بين مختلف المذاهب الدينية داخل المعتقد الواحد. كما نلاحظ خللا عقديّا عند تحديد معنى الإله ، فيتساوى التّوحيد والتعدّد ، وهو ما يعبّر على طغيان العنصر

(١) انظر بحثنا « نقد الخطاب الديني: رؤية إسلامية جديدة » ، ضمن أعمال ندوة: التديّن في أوروبا، (عقدها بباريس مركز البحوث والدراسات بالمعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية بالتعاون مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي مكتب باريس)، بتاريخ: ١١ و ١٢ يوليو ٢٠٠٢.

الإنساني في تحديد معاني المصطلحات.

وبمراجعة التعريفات المتعدّدة للدّين ، تلك التي صيغت ضمن سياق معرفي وفلسفي يحكمه مخزون ثقافي غربي ، وتلك التي ارتبطت بالتصوّر القرآني ، فإنّه لا يمكن اعتماد إلاّ هذا التعريف الأخير ، والذي بحسب أصولنا الاعتقادية هو التعريف المعياري ، الذي حدّد تدقيقا هوية الدّين المرضي المقبول عند الله تعالى ، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [٢].

ورد في تفسير البَغوي:﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ يعني الدّين المَرضي الصحيح ، كما قال تعالى: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٣] ، وقال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ، وفتح الكسائي الألف من أنّ الدّين ردًّا على أنّ الأولى تقديره: شهد الله أنّه لا إله إلاّ هو وشهد أنّ الدّين عند الله الإسلام ، قال قتادة: في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلاّ الله والإقرار بما جاء من عند الله تعالى ، وهو دين الله الذي شرع لنفسه وبعث به رسله ودلّ عليه أولياءه [ولا يقبل غيره ولا يجزي إلاّ به][٤] ، وفسّر ذلك محمّد جواد مغنية بقوله: حتّى الدّين الذي أوحي إلى نوح والنبيّين من بعده[٥].

---

(١) سورة آل عمران : ١٩.

(٢) سورة آل عمران : ٨٥.

(٣) سورة المائدة : ١٣.

(٤) معالم التنزيل، حقّقه وخرّج أحاديثه: محمّد عبد الله النّمر وآخرون، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، طبعة ١/ ٩٨٩، ٢/ ١٨.

(٥) التفسير المبين ، دار الجواد، بيروت ، طبعة ٣ منقّحة ومزيدة/ ١٩٨٣ ، ص ٦٥.

ويرى محمّد رشيد رضا[١]: « أنّ تسمية دين الحقّ إسلاما ، يناسب كلّ معنى من معاني الكلمة في اللّغة ، وأظهرها آخرها في الذّكر لا سيما في هذا المقام. ويؤيّده الآية من قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾[٢]... إنّ الحصر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ يتناول جميع الملل التي جاء بها الأنبياء ؛ لأنّه هو روحها الكلّي الذي اتّفقت فيه ، على اختلاف بعض التكاليف وصور الأعمال ، وبه كانوا يوصون...». كما : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ صيغة حصر ، وهي تقتضي في اللّسان حصر المسند إليه وهو الدّين ، في المسند وهو الإسلام ، على قاعدة الحصر بتعريف جزئي الجملة ، أي لا دين إلاّ الإسلام ، وقد أكّد هذا الانحصار بحرف التوكيد...[٣] ، وقد استدلّ الإمام أبو عبد الله الشّافعي وغيره بهذه الآية الكريمة: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾[٤] ، على أنّ الكفر ملّة واحدة ، توارثه اليهود من النصارى وبالعكس إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به ؛ لأنّ الأديان ما عدا الإسلام كلّها بالشّيء الواحد في البطلان...[٥] .

*****

(١) تفسير المنار ، دار المعرفة ، بيروت ، طبعة ٢ ، ٣ / ٢٧٥.

(٢) سورة النساء : ١٢٥.

(٣) محمّد الطّاهر ابن عاشور: التّحرير والتنوير ، الدّار التونسية للنّشر، تونس ، ١٩٨٤ ، ٣ / ١٩٠.

(٤) سورة الكافرون : ٦.

(٥) سعيد حوّى: الأساس في التّفسير ، دار الإسلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت ، طبعة ١ / ١٩٨٥ ١١ / ٦٧٢٤.